الفصل الرابع

الحكم على العمل المبتكر

مقدمة : بالرغم مما ذكر من أوصاف لتحديد مضمون العملية الابتكارية ، وطبيعة العمل الفنى المبتكر ، إلا أنه ليس من اليسير الحكم على الأعمال المبتكرة ، ذلك لأن هذا الحكم يتطلب فهماً أصيلا ، وثقافة عميقة لكل ما يتعلق بالعملية الابتكارية ، كما أنه يتطلب من المقوم خبرة واعية تمكنه من تمييز العمل المبتكر من غيره . ولما كانت العملية الابتكارية متطورة وليس لها شكل ثابت ، فمن المتوقع أن نشاهد اختلافات فى الآراء تجعل عملية الحكم غاية فى التعقيد .

اختلاف الآراء : والناس يختلفون فى آرائهم حول العمل الفنى لأسباب كثيرة منها : أن خبراتهم السابقة تختلف فى الكم وفى النوع معاً ، كما أن التدريب الموضوعى الذى مارسوه ليس له طابع موحد . وتزداد الآراء اختلافا كلما تنوعت المهن ، واختلفت التخصصات ، وحتى بين أصحاب التخصص الواحد لابد أن نجد معايير متفاوتة لطبيعة فهم كل منهم ، وما كوّنه من عقائد فى أثناء تكوينه .

وقد سبق أن أجرى برت (Burt) تجربته على استجابة

الناس للأعمال الفنية . وخرج بأربعة أنماط رئيسية سماها : التشخيصى ، والترابطى ، والفسيولوجى ، والموضوعى (١) . والثلاثة الأول تتغلب فيهم الناحية الذاتية على الناحية الموضوعية ، أما فى النوع الرابع : فالناحية الموضوعية هى الأساس . وما وصل اليه برت يبين فى الحقيقة أنواع الاختلافات التى يمكن أن توجد وبعض اتجاهاتها المميزة ، ولكن بالنسبة للحكم على العمل الفنى المبتكر من زاوية الشخص المتخصص الذى يعتبر حجة فى ميدانه ، فان النظرة الموضوعية هى الأساس ، وفى تلك النظرة لابد أن يتخلص الرائى من كل الارتباطات العارضة ، والمزاج الوقتى الشخصى، ويهب نفسه قليلا الى العمل الفنى ليمنحه شيئا من مضمونه ، ويملى عليه ديانته ورسالته . والمتفرج إذا تعصب فى رؤيته ، لا يتمكن من الرؤية السليمة ، لأن جوانب تعصبه ستحرمه من أن يكشف لنفسه طبيعة العمل الفنى وما يحمله من قيم .

ويبدو أن التذوق الفنى ، والحكم على الأعمال المبتكرة ، يتطلبان شيئا متناقضا من الرائى ، ففى الوقت الذى يتحتم أن يحبذ فيه الرائى سابق خبراته ومفاهيمه عن الفن ، لتمكنه من أن يرى عملا فنيا جديدا ، فانه يطالب أيضا بأن يكون غير متعصب لثقافته ، بل متفتحا يستغل ثقافته الميسرة كمفتاح لكشف المستور

---

(١) راجع للمؤلف : **اصول التربية الفنية** ، ص ١١٩ — ١٢٣ .

فى الخبرة الجديدة التى يواجهها • فهو يرى فى الخبرة الجديدة بقدر ما يحضر لهـا من سابق خبراته وماضيه ، وفى الوقت نفسه يجب أن يعتبر هذا الماضى وسيلة وليس غاية • فلو أنه اعتبره غاية لمـا استطاع أن يرى أى جـديد فى الخبرة الفنية المبتكرة التى يتعرض لهـا •

معايير مدرسية : على أننـا لو حللنا الماضى ، قد نجد فى طياته مبادى وأصولا كثيرة من بينهـا المعايير المدرسية التى تعلم فى كليات الفنون ومعاهده ، بقصـد تقريب التلميذ من فهم الحقيقة الفنية • ولكن هـذه المعايير المدرسية غالبا مـا تتضمن بعض القواعـد الجافة ، والوصـفات الآلية ، وهـذه القواعد والوصفات إن نفعت فى بعض الحالات ، قـد لا تنفع فى حالات أخرى ، لأن طبيعة العمل الفنى المبتكر لا تخضع لقاعدة سابقة . أو مظهر آلى محفوظ • وقد يفيد الرائى أحيانا أن يكون متفهما لبعض تلك المبـادىء والأصول الفنية : كالتشريح ، والظـل والنور ، وقواعد المنظور ، وخلط الألوان ، وعمليـات التوافق والتباين والايقاع ، وأنظمـة التكوين المختلفة • ولكن هـذه المبادىء ليست مطلقة ، أى أنهـا ليست بالضرورة العوامل التى تؤدى الى ابتكـار مضمون • وتطبيقها فى أى حالة من الحالات ، إنما يخضـع لطبيعة العمل الذى تطبق فيه ولكيانه ، أى أنه ليس لهـا شكل ثابت تظهر به ، وإنمـا تتكيف من خلال العمليـة

الابتكارية فتأخذ شكلها ، ولونها ، ومظهرها المميز من الكيـان الكلى للعمل الفنى المبتكر الذى دخلت فيه كأحد مقوماته المختلفة. ولذلك فان الانســان يحتاج لفهم أعمق من مجرد التطبيق الآلى للمعايير المدرسية . ويلاحظ أيضا أن تلك المعايير قد تكون معوقا فى كثير من الحالات ، فلا تساعد على تمكين المتذوق من رؤية العمل الفنى المبتكر ، أو الحـكم عليه حكما سليما . وذلك اذا تخذت كنهايات مطلقة فى حد ذاتها .

ومما هو جـدير بالذكر أن طلبة الفنون كانوا يدرسون مثلا أن الصورة تقل فى قيمتهـا إذا كان نصفها الأيمن يماثل نصفها الأيسر ، وأنها تكون ذات قيمة أفضل لو أنهـا اتخذت فى تكوينها شكلا هرميا ، وكانت هناك مواصفات للألوان التى توضع فى أرضيات الصـور بحيث تتناسب مع أشكالها . فكل هـذه الوصفات كان يحفظها الطلاب ويرتبون انتاجهم عليها . ولكن الفنون الحديثة غيرت من قدسية هـذه القواعد — بحيث أمكن إيجاد صور كثيرة ناجحة أحيانا متماثلة ، وأحيانا بلا نظام هرمى. فالمبادىء التى يستند عليهـا العمل المبتكر هى خاصة بهـذا العمل وحده ولا تنطبق على أى عمل فنى آخر .

الفنان هو الحاكم الأول على فنه : وعلى الرغم من محاولات النقاد والفنانين فى تفسير الأعمال المبتكرة ، وشرح كنهها . وتقريبها من الأذهان إلا أن الحكم الصحيح على العمل الفنى ،

يصـــدر عادة من الفنان نفسه حينمـــا يكون واعيا بمـــا يعمل ويؤدى ما ينتجه بذكائه • والفنان فى الحقيقة ، هو الحاكم الأول على فنه ، وهو الذى يعرف موضع الذلل أو النقص ، وموضع القوة والنجاح ، وهو الذى ببصيرته النفـــاذة ، يمكنه أن يترسم الخطوة التالية التى يصح أن يخطوها • يقول بيكاسوا واصفا حالته حين يبتكر مستنكرا إمكانية أى متفرج فى أن يدرك بالضبط مـــا أراد أن يسجله ، يقول بيكاسو : « كيف نتوقع من متفرج أن يعيش صورتى مثلما عشتهـــا ؟ إن الصورة تأتى الىّ من أميـــال بعيدة ، فمن ذا الذى يستطيع أن يتكهن من أى بعد أحسست بهـــا ، ورأيتها ، فصورتها ؟ وفى اليوم التالى لا أتمكن حتى أنا نفسى من أن أدرك ما فعلته ! من ذا الذى يستطيع أن يتوغل فى أحلامى ، وفى غرائزى ، وفى رغباتى ، وفى أفكارى ، التى اتخذت وقتـــاً طويلا لتنضج ، وتظهر فى ضوء النهـــار ، وفوق كل ذلك يستطيع أن يلمس من هذه الأشياء ما كنت أحاول أن أحققه ، حتى ضد رغبتى الذاتية ؟ »(١) •

فنتبين من حديث بيكاسو ، كيف يستطيع الفنـــان أن يكون على وعى بانتاجه ، كما يبين حديثه صعوبة إدراك هـــذا الانتاج ، وبخاصة اذا تذكرنا أن الفكرة التى تظهر فى العمل الفنى ليست وليدة الصدفة ، وإنمـــا لها تاريخ طويل فى ماضى

---

(١) انظر للمؤلف ، آراء فى الفن الحـــديث ، ص ١٠٧ .

الفنان ، ولعله أقرب الناس الذى يستطيع أن يفسر لنا ما هو بصدده . على أنه من الممكن الحكم على انتاج الفنان حكما أقرب الى الصحة ، لو أن الذى يحكم عليه فنان أعمق فى خبرته وبالتالى أصدق فى تفسيره . فى هذه الحالة يستطيع هذا الفنان أن ينظر بفهم ويعمق لعمل زميله ، متبينا نواحى القوة والزلل . والفن ما هو إلا لغة ، واللغة وسيلة للاتصال ، وكل من يتمكن من تعلم اللغة بعمق ، يستطيع أن يتفهم المعانى ويكشف عنها .

معايير الجماهير : والجمهور ينظر الى الأعمال الفنية بعقلية غير مدربة ، ويطالب الفنانين بأن ينتجوا له صورا تضاهى الطبيعة ، وقل أن نجد بين الجمهور عددا مثقفا ينظر الى الأعمال الفنية نظرة موضوعية ، ويصدر أحكامه على ما تتضمنه من قيم . وكلمة جمهور تشتمل على كل هؤلاء الناس الذين لم ينالوا قسطا من التدريب على الرؤية الفنية داخل المدارس ، أو خارجها . فليس من المعقول أن يؤخذ رأى هؤلاء حجة فى الوقت الذى نعرف جيدا أن آراءهم لا تستند الى منطق ملموس . وفى مسائل العلم ، لا يفكر أحد فى أن يعتمد برأى الجمهور ، أما فى الفن ففكرة الجمهور تلوكها الألسن على الرغم من أن الفن والعلم أصبحا يعالجان من ناحية الخلق والابتكار على قدم المساواة . وإذا كان مضمون العملية العلمية لا يستطيع فهمها وتبصرها

إلا العـــلم ، كذلك العملية الابتكارية فى الفن لا يدركهـــا إلا الفنـــان الناضج .

والجمهور فى كل بلد له طبيعته ومطالبه . ولا يعقل بالنسبة لجمهور جائع أن يغرق فى البحث عن القيم العليـــا فى الحياة ، إذ أن هـــذه القيم تنمو مع نمو الاكتفاء الذاتى للشعب ، وليس معنى هـــذا أن للشعوب الباحثة عن الحرية . وعن التطـــور ، والتى ذاقت صنوف العذاب تحت نيران المستعمر ، ليس معنى هـــذا أن هذه الشعوب لا فن لهـــا . إن فن هـــذه الشعوب عادة يتركز فى فنونها الشعبية القريبة من نفوسها ، ولكن هـــذه الفنون لا ترقى الى مستويات الفنون التى تمثلهـــا الحضارات فى أحسن حالاتهـــا .

مـــا نريد أن نقوله : هو أن الحكم على القيم الفنية العميقة فى الأعمـــال المبتكرة ، لا يصح أن يستند الى الآراء السوقية السائدة ، وإنمـــا يجب أن يدعمه العلم ، والثقافة ، والتدريب المتواصل ، ليمكن الحـــكم عليها ، حكما سليما .

تعقد الحكم مع تعقد الابتكار : والأعمـــال الفنية المبتكرة ، تتدرج من البساطة الى التعقيد ، ويقصـــد بالتعقيد مستوى العمق الذى قد تصل اليه الأعمال المبتكرة وهى فى حالاتهـــا الرفيعة . وليس من السهل الحكم على الأعمال الأخيرة ، إذ أن

العمل الفنى كلمـا وصل الى درجة من العمق ، تطلب بالتالى عقلية على نفس المستوى لإدراكه . فالثقافة التى يعكسها الفنان فى عمله ، ليس من اليسير أن تنزل الى المستوى الدارج ، بل تحتاج حتما الى أشخاص نالوا حظهم من مثل هـذه الثقافة ، وأصبحت تكوّن لديهم معايير ناضجة للحكم على الأشياء . ويمكن أن نجد مثلا واضحا فى القرآن ، إن تفسـير القرآن يحتاج الى معرفة كبيرة ، وعلم عميق ، والذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب فى حداثة سنهم ، يرددونه دون أن يعرفوا بالضبط ما يحتوى عليه من معـان حتى يصلوا الى مرحلة أعلى من النضج . ويستمعوا الى ثقاه العلماء فى التفسير ، فيمكنهم أن يترجموا مـا يهدى اليه ترجمة واعيـة . وفى كل الأعمـال الأدبية ، والشعرية ، والموسيقية ، تجد أن قسطا كبيرا من التعليم يحتاجه المستمتع بالفن لكى يتذوق تلك الأعمـال الفنية ويفك طلاسمها . فان مجرد الرؤية الأولى للعمـل الفنى قد لا تعنى إلا التعرف والإدراك ، لكن لكى تتحول هذه الرؤية الى الاحساس بالعلاقات الجمالية ، فهـذه مسألة أخرى تتطلب التدرب على استخدام هـذه اللغة .

اختلاف الأساس باختلاف المدرسـة الفنية : وليس من اليسير أن نضـع أساسا عاماً يمكن به قياس الأعمال المبتكرة على مر العصور . وكمـا ذكر فيمـا قيل من أن الابتكار يرتبط

بفلسفة العصر ، وبالاتجاهات الفنية السائدة ، لذلك فان معايير الابتكار تخضع الى حد ما لبعض القيود التى تفرضها الحضارة فى زمن معين ، وليس أدل على ذلك من طبيعة الانتاج الفنى المبتكر ، فلو أن شخصا أنتج لنا أعمال ليوناردو فى القرن العشرين ، لما اعتبر فنانا مبتكرا • ولذلك فان كل مدرسة فنية تضع فى الواقع فروضها ، وتتحدد آمالها ؛ وفى ضوء هذه الفروض والآمال ، يمكن أن تستمد معايير الحكم على أى انتاج يرتبط بهذه المدرسة ويدين بمبادئها • ولذلك فان انتاج المدرسة السريالية يفقد قيمته الى حد ما لو طبقنا عليه المبادىء التركيبية التى أكدتها المدرسة التكعيبية ، كما أن الخيال الجامح ، وعدم التقيد بالواقع الذى يبدو فى أعمال فنان مثل شجال ، ينهار لو أنه قيس بالمبادىء الفنية التى دان بها عصر النهضة • من هذا نرى أن الاساس الذى بنيت عليه المدرسة الفنية ، هو المعيار الذى يمكن أن نطبقه للحكم على إنتاجها ، ويتضمن هذا ضرورة الإلمام بمبادىء كل مدرسة فنية ، وخطوطها العريضة ، لكى يكون الحكم على إنتاجها سليما •

ولكن يبدو للأذهان على الرغم مما ذكر ، أن خضوع الحكم على العمل المبتكر لقوانين مدرسة معينة ، يجعل نتيجة الحكم وقتية وآلية ، وهذا يتعارض الى حد كبير مع الفكرة التى قدمت آنفاً ، من كون الفن له قيمة عالمية ، ويخترق الحواجز

الزمانية والمكانية ، بل والعقائدية أيضـــا . والحقيقة أننـــا لا نجد تعارضا بين الاتجاهين ، فالحقيقة الفنية غنية وفيهـــا جوانب متعددة ، وقد جاهد الفنانون على مر العصور فى الكشف عنها مؤكدين جانبا أو آخر ، معنى هذا أيضا أنه رغم الاختلافات التى تبـــدو ظاهرية بين مدرسة وأخرى . إلا أن العمل الفنى لا يصبح له قيمـــة حقيقة إلا إذا اخترق الحواجز الضيقة بين مدرسة وأخرى . فالتقيد إذن بمبـــادىء مدرسة كأساس للحكم على العمل المبتكر الذى ينتمى إليهـــا . مـــا هو إلا مســـألة تمهيدية تساعد فى الكشف عن قيمة هـــذا العمل ، وستبدو تلك القيمة جلية كلما كان العمل يحمل قيما دائمة ، ولم يأخذ بالحرفية الشكلية لطابع المدرسة . إن الأساس الذى بنى عليه التعبير فى مدرسة معينة ، هو مفتاح يساعد فى تقديمنا لهـــذا العمل ، وفهم فلسفته ومكوناته ، ولكن لكى نحكم بجودة هـــذا العمل أو بضعفه يجب أن نأخذ فى الاعتبار مـــا استطاع أن يحققه الفنان لهـــذا العمل من معان وقيم دائمة بالأسلوب التشكيلى ، أى بلغة العلاقات بين الخط ، والمساحة ، والكتلة ، واللون .

قد يحدث فى أحوال كثيرة ، أن يتجمع نفر من النقـــاد والفنانين فى لجـــان تحكيم أو مقننيات . ليصـــوتوا على أى الأعمال المعروضة أفضـــل من الناحية الفنية . ولقد حضر المؤلف لجـــان تحكيم من هـــذا القبيل ، وشاهد التعصب الشديد الذى

يتجه اليه كل فنـــان أو ناقد فى الحكم على الأعمال الفنية ، وكان يبدو فى كثير من الأحيان أن أعضاء اللجنة لا تجتمع أصواتهم بعضهـــا مع بعض فى صالح عمل أو ضـــده ، فالأكاديميون كانوا ينحازون دائمـــا للأعمال التمثيلية ، بينمـــا الحديثون لا يهتمون إطلاقا بتسجيل الطبيعة ، وتبدو أمامهم القطع الفنية جيدة أو سيئة ، إذا كانت تسجل أو لا تسجل قدرا من الأسس الفنية التى يستند اليها الفن الحديث • وهذه مسألة جديرة بالاعتبار . إذ أن هـــذا الخلاف الواضح ليس خلافا فقهيا ، وإنما خلاف تعصبى ، أى يوصل الرائى الى قبول أو رفض نزعات فنية معينة حينما لا تلتقى هـــذه النزعات باتجاهاته ومفاهيمه • ليس من الضرورى إذاً أن يكون حكم أى مشتغل بالفن سليما من الناحية النظرية ، إذ أن الحكم على الأعمـــال الفنية أشبه مـــا يكون بالحكم على القضايا المختلفة ، فلكى يكون القاضى نزيها ، يجب أن تكون لديه القدرة على أن يخترق ببصره العمل الفنى ويكشف عن محاسنه ومثالبه ، ثم يزن كلتا الناحيتين فى كفتين ، ويصدر حكمه التـــالى على مدى نجاح هـــذا العمل • إن القاضى الحكيم لا يطبق القانون تطبيقا حرفيا ، وإنما يأخذ فى اعتباره الملابسات والظروف المختلفة التى فى ظلها حدث اختراق للقانون • كذلك فى الحكم على العمل الفنى ، توجد بلا شك مفاهيم عامة ، وأسس ومبادىء يمكن أن يتعلمها الانسان فى معاهد الفنون وكلياتهـــا

للحكم على الأعمال الفنية . ولكن حينما يحكم الانسان على عمل فنى مبتكر ، يجب أن ينسى كل هـذه القواعد والأسس العامة . حتى لا تعوقه عن كشف ما يحمله العمل الفنى من قيم جديدة . فكل عمل فنى مبتكر يحمل قوانينه الذاتية ، وهو كالطفل حديث الولادة ، لا يشبه أى مخلوق آخر . ويفهم ضمنيا من هـذه المناقشة . أن الفنان يعكس طرازه فى عمله الفنى ، وطرازه هذا هو محصلة التصارع بين العلاقات المختلفة حينما تتداخل . وتتشابك ، وتندمج وتأخذ طابعها المميز . فالطراز يتضمن حتماً إعادة ترجمة القوانين والأسس الفنية ترجمة ذات طابع خاص . وإذا سلمنا بهـذا يصبح من غير المعقول الحكم على طراز بتطبيق قواعد وأصول مطلقة . ولا توجد هذه القواعد والأصول فى مجـال فنى بدون أن يتحـكم طراز فى تشكيلها وصياغتها بشـكل معين ، ولذلك فمن أين تأتى مثل هذه المواصفات الخاصة بالقواعد والأصول ؟ إنهـا لا تستثار عادة إلا فى ذهن بعض المشتغلين بالفنون ، وتستثار كمـا لو كان لها وجـود مستقل . والحقيقة غير ذلك . إن وجودها يأخذ شكله ومصيره فى كل عمل فنى مبتكر . وهى تظهر فى كل حالة مبتكرة متكيفة لتؤدى وظيفتها الملائمة فى هـذا العمل . إن المسألة تتطلب ذكاء من الناقـد الذى يحكم على الأعمال الفنيـة . إذ لابد أن يكون عنده إلمـام واسع بالاتجاهات الفنية ، سابقها وحاضرها ، كمـا يجب

أن يكون لديه من الخيال ما يمكنه من رؤية الجديد واستساغته ، وكشف النقاب عما يحمله من قيم .

لقد تحدث ذات يوم أحد النقـاد فى متحف الفن الحديث بنيويورك قائلا : « إن وظيفة متاحف الفنون الحديثة ليست الدعاية لترويج انتاج فنان معين أو إملاء اتجاهات على الفنانين ، وإنمـا هى فى الحقيقة العمل على تقـديم قرائح الفنانين على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم للجمهور ، لكى يتذوقها فى أثنـاء حياتهم » إذ أن كثيرا من الفنانين فى العهود الماضية ، كانوا يعيشون طوال حياتهم ويجدون نكرانا من المجتمع المحيط بهم ، ولا يكـاد يعترف بقيمتهم إلا وهم فى شيخوختهم . أو بعد مماتهم ، فكان الجيل الذى يعيش فيه الفنانون يحرم حقيقة من تذوق أعمالهم ، وتقديرهم ، ولذلك كانت توجد دائما هوة سحيقة بين الجمهور وبين الفنـان . إن وظيفة متاحف الفن الحـديث فى العصر الحاضر ، هى التغلب على هـذه الهوة ، والتقريب بين الفنان وبين جمهوره عن طريق إتاحة الفرصة لأعمـال هـذا الفنان ، بأن تعرض وتشرح ليفهمها الجمهور . إننـا لا نؤمن بالضغط على الفنان لكى يشق طريقه فى هذه الناحية أو تلك ، ويتبع مرغما هـذا المذهب أو ذاك . إن الفنان الأصيل هو الذى يختط طريقه ، ويتبلور طرازه ، وتظهر عبقريته ماثلة أمام أعين الناس ليتذوقوها . ولذلك فان رسالة متاحف

الفن الحديث ليست إملاءً لاتجاهات معينة ليحققها الفنانون ، وإنمـا هى عرض لاتجاهات الفنانين أنفسهم كمـا تظهر نتيجة لقدراتهم الخلاقة وشرحها للناس ليتذوقوها .

إنه على الرغم من الاختلافات بين المدارس الفنية ، ومن التعصب الذى قد يبـدو أحياناً عند المنتمين لمدرسة أو لأخرى من الحكم على الأعمال الفنية ، إلا أن تلك الأعمال اذا كانت ذات قيمة حقيقية ، فانهـا كفيلة بأن تخرس الألسن ، وتحنى أمامهـا الرؤوس ، وإن أى خلاف عليهـا مسألة مظهرية أكثر منهـا حقيقية .